محاضرة 02:

المصنفات النقدية في المشرق والمغرب العربي:

لقد أفرزت ساحة النقد في العصر العباسي العديد من الكتب، والمؤلفات النقدية التي تناولت بالدراسة أهمّ القضايا التي شغلت الفكر النقدي في تلك المرحلة نذكر منها:

1_ طبقات فحول الشعراء: لصاحبه محمد بن سلاّم الجمّحي (ت 231ه)، وُلد بالبصرة، أخذ العلم عن الكثير من شيوخ الأدب و الحديث و العلم، وكان من أعلامهم: الأصمعي، وبشار بن برد، وخلف الأحمر، و المفضّل الضّبي، ويونس بن حبيب. ويَظهر ابن سلام في كتابه (طبقات فحول الشعراء) ناقدا أدبيا متميّزا، أدرك الكثير من أسباب الجودة و الإخفاق في الشعر العربي القديم، وتدل آراؤه على ذوق نقدي حصيف قادر على إنزال الشعراء منازلهم، واستخلاص الرائع من أشعارهم على سبيل الحجة و الدليل. وقد طبق ابن سلاّم تصوّره النقدي على مئة و أربعة عشر شاعرا من فحول الجاهلية و الإسلام، وهذا العدد يساوي تمام عدد سور القرآن، رتبهم في طبقات عددها ثلاث وعشرون طبقة، وهو عدد سنوات تنزّل الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلّم، وقد قصر الطبقة على أربعة شعراء، وقد يلاحظ أنّ ثمة قدرا من الاعتباطية في اختيار هذه الأرقام.

ومن الواضح أن ابن سلاّم أراد أن يقدّم لأهل العلم كتابا يتضمّن حصيلة معرفية لا يستغني عنها من أراد الإلمام بشيء من أمر العرب، من جهة شعرهم و شجاعتهم، وسيادتهم، و أيامهم. يقول ابن سلاّم في مقدّمة الطبقات: " ذكرنا العرب و أشعارَها، و المشهورين المعروفين من شعرائها و فُرسانِها و أشرافِها، و أيامِها، إذ كان لا يُحاطُ بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب، وكذلك فرسانُها و ساداتُها و أيّامُها، فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم، ولا يستغني عن علمه ناظرٌ في أمر العرب، فبدأنا بالشعر".

وقد توقف الناقد في مقدمة الكتاب عند الكثير من القضايا: كنشأة الشعر العربي، وبداياته الأولى على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف، و إن بدت آراؤه في هذا الشأن على قدر من الاضطراب، حيث يجعل في موضع آخر من الكتاب الرثاء الذي ينشأ عن الوقائع و الثارات و الدماء مبعثا لتقصيد القصيد و إطالة الشعر فيقول ابن سلام: " وكان أول من قصّد القصائد و ذكر الوقائع، المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب وائل" . كما تحدّث الناقد عن ضياع قدْرٍ كبير من الشعر بسبب انقطاع الرواية، وعن وضع الشعر و انتحاله، وعن ثقافة الناقد وطبيعتها، وقضايا أخرى اشتملت عليها مقدّمة الكتاب ثم يباشر في ترتيب الفحول من الشعراء بحسب منازلهم على طبقات الكتاب.

2_ البيان و التبيين و الحيوان: لصاحبه الجاحظ (ت 255ه) : عمرو بن بحر بن محبوب أبو عثمان، لُقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه وُلدَ بالبصرة، وتوفي أبوه وهو صغير، فعاش في كنف أمه، دخل الكتاب، و أفاد من جوّ العلم الذي احتضنته البصرة إذ ذاك، من سوق المِربد التي كانت ملتقى كبار شعراء العصر و خطبائه، ومن حلقات العلماء و الأدباء التي كانت تنعقد في مساجد البصرة.

وقد توافر للجاحظ عاملان أسهما في تحديد شخصيته العلمية: الأول نَهم لا يوصف إلى قراءة كل ما وقع تحت يده من كتب، والثاني عصر علمي يزدهي بأشهر علماء الأمة في كل فرع من فروع المعرفة، فقد أخذ اللغة عن الأصمعي و أبي عبيدة و أبي زيد الأنصاري، و أخذ النحو عن الأخفش الأوسط، و أخذ الحكمة عن صالح بن جناح اللّخمي، وتفقّه في الاعتزال على شيخ المعتزلة أبي إسحاق ابراهيم بن سيّار النّظام.

وقد تناول الجاحظ في كتابيه العديد من القضايا النقدية، فألمّ بفكرة ماهية الشعر و جوهره في عبارته الشهيرة: " والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي و العربي، و البدوي و القروي، و المدني، و إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيّر اللفظ، و سهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج و جنس من التصوير". وهذا النص يضع بين أيدينا مفهوما متطورا جدّا للشعر، إذ يفرق الجاحظ هنا بين المعاني الغفل التي لم يصوّرها الشعر، وبين الشعر الذي يصبغ، و ينسج، ويصوّر.

كما تناول الجاحظ قضية السرقات الشعرية فرأى بأن مجالات القول التي يسرقها أحدهم من الآخر أربعة: التشبيه المصيب، أو المعنى الغريب، أو المعنى الشريف، أو البديع المخترع، كما تحدّث الجاحظ عن موضوعية النّاقد الأدبي، منكرا مسلك بعض رواة الشعر من أهل زمانه ممّن يتعصّبون للقديم، و لا يلقون بالا لأشعار المولّدين أيّا كان حظّها من الجودة، وعرض الجاحظ لفكرة الطبع الشعري عند المولّدين من الشعراء، وسمّى لنا طائفة منهم، وجعل بشار بن برد شيخ المطبوعين من المولّدين، كما تناول الجاحظ فكرة تنقيح الشعر و بناء لغته، و أثر البداوة عليه.

3_ الشعر والشعراء: لصاحبه ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة) (ت276ه)، ولد بالكوفة، وتولّى منصب القضاء في الدّينَوَر، وسكن بغداد شطرا من حياته، ترك ابن قتيبة مؤلفات كثيرة في شؤون الدين و الأدب و قد ذكر له صاحب الفهرست ثلاثة وثلاثين كتابا منها: كتاب عيون الشعر، كتاب عيون الأخبار، كتاب التفقيه، كتاب أدب الكاتب، و كتاب الشعر و الشعراء، الذي يقول في مقدمته: " هذا كتاب ألفته في الشعراء ، أخبرت فيه عن الشعراء، و أزمانهم، و أقدارهم، و أحوالهم في أشعارهم، وقبائلهم، و أسماء آبائهم، ومن كان

يُعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعمّا يستحسن من أخبار الرجل و يستجاد من شعره، وما أخذَتْهُ العلماء عليهم من الغلط و الخطأ في ألفاظهم ومعانيهم، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون، و أخبرت فيه عن أقسام الشعر و طبقاته، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها، ويستحسن لها ".

ففي أقسام الشعر، وأضربه يقول ابن قتيبة: تدبّرت الشعر فوجدته أربعة أضرب: ضرب منه حَسُن لفظه و جاد معناه كقول القائل:

في كفّه خيزُران ريحُه عِبقٌ من كفِّ أروعَ في عرنينهِ شَمَمُ

يُغضي حياءً و يُغضي من مهابَتهِ فما يكلّمُ إلاّ حين يبتسمُ

وضرب منه حسن لفظه و حلا فإذا أنت فتّشته لم تجد هناك فائدة في المعنى كقول القائل:

ولمّا قضينا من منى كلِّ حاجة ومسّح بالأركان من هو ماسحُ

وشُدّت على حدبِ المهارى رحالنا ولا ينظر الغادي الذي هو رائحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطحُ

وضرب منه جاد معناه و قصرت ألفاظه عنه كقول لبيد بن ربيعة:

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسهِ و المرءُ يُصلحُه الجليس الصالحُ

وضرب منه تأخر معناه و تأخر لفظه كقول الشاعر:

إنّ محلاًّ و إنَّ مرتحِلا وإنَّ في السّفرِ ما مضى مَهَلا

استأثر الله بالوفاء وبا لحمدِ و ولّى الملامة الرّجلا

كما أشار ابن قتيبة في كتاب الشعر و الشعراء إلى التزامه الموضوعية النقدية، مبيّنا أنّ أحكامه النقدية تنصرف إلى الشعر نفسه، بصرف النظر عن مبدعه وما يتصل به من شؤون و أحوال، فيقول: " و لم أسلك فيما ذكرته من شعر كلِّ شاعرٍ مختارا له،سبيل من قلّد، أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرتُ إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدّمه، و إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، و أعطيتُ كلاًّ حظّه و وفّرت عليه حقّه ".

كما عرض ابن قتيبة العديد من القضايا النقدية المرتبطة بالشعر العربي كمذهب المتقدّمين في أقسام، وبناء القصيدة، وعيوب الشعر، والطبع والتكلّف.

و إلى جانب هذه الكتب ألّفت مدوّنات و كتب نقدية أخرى عالجت الكثير من القضايا النقدية فقد ألّف ابن طباطبا العلوي (ت 322ه) كتابه **" عيار الشعر"** الذي قدّم فيه تصوّره لإنشاء القصيدة و الذي يبدأ بفكرة القصد إلى إنشاء ضرب خاص من الكلام هو الشعر، ثم جمع المعاني الجزئية، واختيار ما يطابقها من الألفاظ وقوافي ووزن، كما توقف ابن طباطبا عند ضرورة امتلاك مجموعة من الأدوات لمن أراد الخوض في ميدان الشعر، ومن ذلك التّوسع في علم اللغة، وحفظ الجيّد من الشعر و النثر، الإلمام بأيّام العرب من انتصارات وهزائم، ومعرفة أنساب العرب و مناقبهم ومثالبهم، و الوقوف على تقاليد العرب في نظم الشعر، وقد رأى ابن طباطبا أنّ المولّدين من الشعراء أفادوا كثيرا من أصول الشعر القديم، وقد استخدموا هذه الأصول استخداما جديدا جعلها تبدو مُلكًا لهم.

أمّا قدامة بن جعفر (ت337ه) فقد قدّم في كتابه **" نقد الشعر"** تصوّره لمفهوم الشعر، فهو عنده " قول موزون مقفّى، يدلّ على معنى " من هنا تحدّث قدامة عن الجودة في الأسباب الأربعة المكوّنة للشعر: فجودة اللفظ تتحقّق بأن يكون سهل المخارج، عليه رونق الفصاحة، وجودة الوزن بأن يكون سهل العروض، وجودة القوافي بأن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج، وجودة المعاني من جهة التقديم الأمثل لها، ومن جهة صلتها بالأغراض الشعرية.

وألّف الحسن بن بشر الآمدي (371ه) **كتاب الموازنة بين الطّائيّين**، حيث يوازن فيه بين أبي تمّام و البحتري، وقد توقّف عند احتجاج أصحاب كل شاعر في تفضيله على الآخر، ثم ذكر مساوئ الشاعرين، وانتقل إلى الموازنة بينهما في الموضوعات و مطالع القصائد، و المعاني، و التّشبيهات و الأمثال. ويُعدّ منهج الموازنة من إضافات الآمدي إلى النقد العربي، فعلى الرغم من اهتمام رواة الشعر منذ وقت مبكر بالموازنة بين شاعرين أو أكثر في فكرة واحدة أو معنى جزئي؛ فإنّ الموازنة الشاملة لم تكن معهودة قبل كتابه.